العنف.. والشخصية العراقية

الأستاذ الدكتور قاسم حسين صالح
رئيس الجمعية النفسية العراقية

قضيت ربع قرن في تدريس مادتي (تحليل الشخصية، والاظطرابات النفسية) وقمت بتحليل شخصيات مجرمين ارتكبوا جرائم قتل عادية وأخرى بشعة ...فوجدت ان النظريات التي حللت شخصية الإنسان وتلك التي حددت أسباب الاضطرابات العقلية والسلوكية لا تنطبق على سلوك الشخصية المعاصرة بخصوص (العنف) الذي تمارسه. وعليه فأنني ركنتها جانبا ورحت اجتهد في إيجاد تفسير لهذا السؤال:

لماذا يكون العنف في الشخصية العراقية بهذه القسوة والبشاعة؟

ولقد وجدت أن إحدى الصفات الغالبة في الشخصية العراقية هي ان ((الموقف)) الذي تكون فيه يتحكم بها أكثر من العقل. وأنها تتصرف بأسلوبين متطرفين ومتناقضين، وكأن في داخلها (ملاك رومانسي) يغني بطرب وينثر الفرح والحب على الناس، عندما تكون في أوقات الراحة والطمأنينة، و (وحش هائج) عندما تكون في أوقات الأزمات.

وأكيد أن الأمر لا يتعلق بالتركيبة الوراثية، إذ لا يعقل أن (جينات) الإنسان العراقي تختلف عن (جينات) باقي البشر، أو بالمناخ أو الطبيعة، إنما الأمر يتعلق بطبيعة (الصراع) على السلطة، الذي بسببه تعرض الفرد العراقي الى اضطهاد وقسوة وظلم وقهر واستلاب تفوق ما تعرض له البشر الآخرون. فتاريخ العراق هو تاريخ العنف والدم والمعارك والأهوال والكوارث.. ليس من بدء المشهد الكربلائي وتحوّل السلطة في الدولة الإسلامية الى وراثية، بل الى ذلك

التاريــخ القديم جدا، الذي يذكر لنا معلومة لها دلالة هي أن المهاجرين الى العراق القديم كانوا من المحاربين الأشداء !.

وهذا يعني ان المجتمع العراقي يكاد يكون الوحيد بين مجتمعــات العالم الذي خبر العنــف لزمن يمتد آلاف الســنين، وما يزال. صحيــح أن تاريخ أوربا كان مليئا بالحروب، لكنها ودعت العنف وصار توجهها نحو الحياة، فيما نحن نمارســه بأفضــع صوره حتى صار توجهنا النفســي يميل أكثر نحو الإفناء، لا ســيما في السنوات الخمس والعشــرين الأخيرة التي شاعت فيها ثقافة العنف.

والغريــب في الأمــر، أن الســيكولوجية العراقية والإســلامية (بعــد أن صــارت بغداد مركــز الدولة) أشاعت العنف وجعلته الوسيلة الوحيدة لحل النزاعات ولإجبــار الخصوم على الطاعــة والخضوع. وكانت لا تلجأ الى التفاوض والحوار إلا بعد أن تقطف الســيوف رؤوس أفضل ما في القوم. وهذه خاصية سيكولوجية في العنف، أنها تغلق كل نوافذ التفكير وتحشد كل قوى الحقد والعدوان باتجاه الانتقام.

...وانظــروا الى تاريخكم الحديــث، تجدون بين حوادثه الآتي:

١. قتــل الملك فيصل الثاني صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨، وقطعــت أيادي الوصي وآخرين وطــاف بها الناس في شوارع بغداد.

٢. وقتل في عام ١٩٥٩، وســحل بالحبال، وعلّق على المشانق، أشخاص في الموصل وكركوك.

٣. وقتــل عبــد الكريم قاســم في رمضــان ١٩٦٣، وشوي في الشهر نفسه بالنار سكرتير الحزب الشيوعي العراقي وعدد من أعضاء الحزب وهم أحياء، وآخرون محسوبون على نظام قاسم جرى التمثيل بهم.

٤. وعقب هزيمــة الجيش العراقي في الكويت عام ١٩٩١، وصــل العنــف بالعراقيين أنهــم وضعوا إطارات الســيارات في رقاب عناصر مــن البعثيين وأحرقوهم وهم أحياء.

٥. وبعد انتهــاء الحرب العراقية الإيرانية في ١٩٨٨ أبيد اكثر مــن مائة وثمانين ألف كــردي في عمليات الأنفــال، وأحرقــت آلاف القرى الكرديــة، فضلا عن مجزرة حلبجة المعروفة.

٦. وفي عــام ٢٠٠٣ اكتشــف العشــرات مــن المقابر الجماعيــة تضم رفــات آلاف العراقيين، بينهم نســاء وأطفال دفنوا وهم أحياء.

وتبين أن السلطة في النظام السابق استعملت وسائل العنــف في التعذيب حتى مع من كان موضع الشــبهة، مثل وضع الشــخص وهو حي في الأحماض التي تذيب اللحم والعظم، والكي والحرق وتقطيع الأعضاء.

ويخطــئ من يــرى أن هذا التفنــن في العنف كان مــن مبتكرات النظام الســابق، بل هو في الأصل (إرث سيكولوجي) من الأنظمة السابقة التي حكمت العراق، منذ أن صارت بغداد عاصمة الخلافة الإســلامية لألف عام. ففي هذا الإرث مشاهد من العنف قد تكون أكثر بشاعة وأهانة لقيمة الانسان، إليكم واحدا منها :

في عــام ٢٩١هج جاء جنود الســلطان بالقرمطي (الحســين بن زكرويه) ومعه أكثر من ثلاث مائة من اتباعه، وقد وضعوا في فمه خشــبه مخروطية وشدت الى قفاه كهيئة اللجام. وأمر الخليفة (المكتفي) ببناء دكة في المصلى العتيق. وتجمهر الناس، وجيء بالأسرى يتقدمهــم القرمطي، فصعدوا بــه الى الدكة وقدّم له أربعة وثلاثون من الأسرى وقد قطّعت أيديهم وأرجلهم

وضربت أعناقهم واحدا بعد واحد. ثم قدّم كبيرهم فضرب مائتي سوط، وقطعت يداه ورجلاه وكوي ثم أحرق ورفع رأسه على خشبه، وصلب بدن القرمطي في طرف الجسر الأعلى الواقع في بغداد طبعا.

وكان العراقي أكثر بني البشر- في زمانه - تعرضا للقسوة والذلّ والإهانة. ففي زمن الخلافة العباسية فقط، ضرب الحصار على بغداد اكثر من عشر مرات، أضطر الناس فيها الى أكل القطط. وفي زمن الخلافة العثمانية (حوالى ٥٠٠ عام) كانت حتى العشائر في الريف تتصارع من أجل السيطرة. وكانت بغداد تنهب وتدمر وتهان لألف عام من الظلم والطغيان وإذلال اهلها من قبل الغزاة. والحقيقة - التي تعيد نفسها اليوم – أنه حيثما حكمت بغداد أو احتلتها سلطة أجنبية، ساد العنف كل ارجاء العراق.

إن ممارسة الشخصية العراقية للعنف تقدم، لمن يريد التقاط العبرة، دروسا في الكشف عن أسبابه، واول هذه الأسباب أن الإنسان ليس مجبولا على العنف، غير أنه يكون أشد ضراوة من الوحش عندما يتعرض الى (الإحباط اليائس).. أعني عندما يعاق أو يحرم من تحقيق أهداف وإشباع حاجات يراها مشروعة، مصحوبة بمشاعر الحرمان النفسي، وبخاصة عندما يدرك أنه أو جماعته يحصل على أقل من استحقاقه، أو أن جماعته تحصل على أقل مما تحصل عليه الجماعات الأخرى.

وثاني هذه الأسباب، أن اللاشعور الجمعي للمجتمع له دور فاعل في تحديد سلوكه الجمعي. وبما أن اللاشعور الجمعي للعراقيين معبأ بالعنف ومبرمج من ألف عام على تشغيله في حل الصراعات، ومشحون بالثأر والحقد، فأن العراقي يستحضر هذا الانفعال – لا شعوريا – في حل أزماته المعاصرة.

وثالث هذه الأسباب، أن السلطة في العراق كانت بيد السنّة من ألف عام، فيما كان الشيعة في المعارضة. وأن ما حصل الآن هو تبادل للأدوار، شبيه من حيث فعله النفسي، بتبادل دوري السيد والعبد. وهذا يعني أن العنف لا بد أن يحصل في المجتمع المتعدد الطوائف والأعراق، اذا انفردت بالسلطة طائفة أو قومية بعينها.

ورابعها أن وجود الأجنبي في أي وطن كان وبأي مسمّى كان (محتل، محرر...) تثير في ابن الوطن الإحساس بالذلّ والإهانة والتحقير والاستلاب، وتستنهض فيه – بحتمية نفسية – مشاعر الكرامة وردّ الاعتبار، تدفعه إلى العنف، ليس فقط ضد المحتل بل وضد من يستميلهم المحتل من الناس، خوفا من أن يستفرد المتعاونون مع المحتل بالسلطة وبالمصالح.

وخامسها، يذكرنا بواقعة حدثت في احتلال العراق أيضا. فقد زار القائد العسكري البريطاني (لجمن) قبيل اندلاع ثورة العشرين، المرجع الديني (الشيرازي) في النجف وعرض عليه أن يأتيه بمفاتيح روضة الإمامين في سامراء (وهي بيد السّنة) ويعطيها للشيعة، فرفض (الشيرازي) وعاد (لجمن) خائبا، وبعث بطلب الشيخ (ضاري – من وجهاء السّنة) وقال له : كيف تطيعون فتوى الشيرازي وهو مرجع للشيعة ؟. فاجاب الشيخ ضاري : والشيرازي مرجعنا أيضا !.

وهذا هو الموقف الذي نفتقده اليوم، وبدونه تتأجج أسباب العنف وينفجر في حرب أهلية لا يعوزها، في حاضرها الآن سوى الإعلان عنها.

وثمة مسألة نوجز بالإشارة إليها هي أن مجتمعنا

الحالي فيه شخصيتان عراقيتان لا شخصية عراقية واحدة. الأولى، شخصية آبائنا التي كنا نفاخر بقيمها الأصيلة (الشرف، الإيثار، النخوة، التكافل الاجتماعي، الخوف من العار ومن فعل الحرام...) وهذه في طريقها الى الاندثار. والثانية، يمثلها جيل بعمر الثلاثينات فما دون..ولّد ونشأ في زمن حروب وكوارث متنوعه !. ومعروف أن الحرب لا تدمر فقط البنى التحتية والفوقية، إنما البنى القيمية للإنسان. استحضروا ما أفرزته الحرب العالمية الثانية في خمس سنوات. فكيف إذا حدثت حروب وكوارث هائلة في وطن واحد استمرت فيه لربع قرن وبدأت العدّ في ربع قرنها الثاني !.

ان أسباب العنف موجودة في المجتمع العراقي كما هي موجودة في أي مجتمع آخر، لكنها كانت راكدة فيه. وأن الذي قدح زنادها أكثر ليس دخول قوات الاحتلال تحت شعار (تحرير العراق) انما – بعبارة أدق – أساليب الغطرسة والكبرياء والأذلال والأهانة التي مارسها الأمريكيون، وجهلهم بسيكولوجية الشخصية العراقية. فضلا عن قصد آخر لأمريكا وضح أمره حين أبقت حدود العراق مفتوحة لتجعل منه ساحة لتصفية أعدائها وتطبيق (نظرية السيفون) عليهم.. التجمع في مكان واحد والقضاء عليهم دفعة واحدة. والأنكى من ذلك، استرخاص أرواح العراقيين حين صرح الرئيس الأمريكي (جورج بوش) من أن اميركا تكافح الأرهاب في العراق، بعيدا عن أميركا، من أجل حياة الأمريكيين، وكأن العراقيين ليسوا بشرا

والسبب الرئيس الآخر لتأجج العنف في العراق بهذه الصور البشعة، هي الأخطاء (وأفدحها كان مقصودا) التي ارتكبتها أمريكا في العراق، وفي مقدمها الأنهيار الكامل لمؤسسات الدولة وشيوع الفوضى وانعدام الأمن، مع أنه من مسؤولية الدولة المحتلة أن تحافظ على النظام في الدولة التي تحتلها. وأشك في أن الأدارة والعقلية الأمريكية كانت تجهل حقيقة نفسية، هي أنه عندما تغيب الدولة وتنهار مؤسسات القانون والنظام، ينفرط عقد الناس الذي يربطهم بالدولة، فيتفرقون الى طوائف وفئات تعود الى جماعاتها المرجعية، سواء كانت طائفية أو عرقية أو دينية... يجدون فيها ملجئا وملاذا يحتمون بها خوفا من خطر حقيقي أو وهمي، يجري تضخيمه في أوقات الأزمات.

وقبل سنتين قال نوح فيلدمان، الكاتب والأستاذ في القانون الدستوري والفكر الأسلامي بجامعة نيويورك : (ان عملية اعادة بناء الدولة في العراق تتضمن العمل على كسب عقول العراقيين وقلوبهم). واظن أن ذلك صار، بعد ما جرى، بعيد المنال. أما القريب المنال فهو، أن العنف بين العراقيين سينحسر ويتوجه نحو المحتلين.. وسينظم اليهم حتى أولئك الذين ما زالوا يرون في المحتل محررا ولا تعلو وجوههم حمرة الخجل !.